جدليـــة الوجـــه والقلـــــب
في الأسس السيميائية لعلم الفراسة

الدكتور: بلقاسـم مالكـيـــة
قسم اللغـــة العربيـتة وآدابهـــا
جامعة قاصدي مرباح-ورقلـــة

تنطلق هذه المحاولة من المأثور الشعبي الذي يقول :"لقلب إذا كان مريض الوجه يعطيك أخباره"، فهذا القول يعكس العلاقة بين الظاهر (الوجه) والباطن (القلب)، وأن ما يلاحظ من علامات على الأول إن هي إلا تعبيرا صادق عن ما يكون عليه الثاني. وقد عرف هذا المجال من العلامات ، وقراءتها في التراث العربي بعلم الفراسة، وهو العلم الذي يعرفه فخر الدين الرازي في كتابه "الفراسة" كما يأتي:"الفراسة عبارة عن الاستدلال بالأحوال الظاهرة على الأخلاق الباطنة –وتقرير هذا الكلام أن المزاج إما أن يكون هو النفس وإما أن يكون آلة النفس في أفعالها وعلى كلا التقدير فالخلق الظاهر والخلق الباطن لابد وأن يكونا تابعين للمزاج، وإذا ثبت هذا كان الاستدلال بالخلق الظاهر على الخلق الباطن جاريا مجرى الاستدلال بحصول أحد المتلازمين على حصول الآخر ولاشك أنه نوع من الاعتبار صحيح"(1)

يقوم تعريف الفراسة على عنصر الثنائية القائم بين الظاهر والباطن من جهة، في الملامح والسلوكات المادية، وإن هو إلا صدا واضحا لما يختلج في أعماق النفس البشرية من انفعالات وجدانية، وما يترسخ فيها من صفات خلقية تسعى للخروج إلى عالم الوجود الفعلي، كأسرة بذلك عالم الكهون المستتر، وخارقة حجب الباطن، لتقدم للعالم الخارجي حقيقة الشخصية الإنسانية، وحقيقة طبائعها، والقيم التي تحملها، ذلك أن الإنسان وإن حاول أن يتجمل في سلوكه، ويتكلف ما ليس من طبعه لا يستطيع أن يستمر في أدائه المسرحي هذا الزمن كله، والحياة كلها، فالطبع المستتر سيفضحه، والملامح الظاهرة

ستكشف سره، لذا كان لمعرفة الإنسان لهذه العلامات، ومعرفة طرق الاستدلال بها شأن كبير في الثقافات القديمة والحديثة على السواء، مع اختلاف في النظرة والتفسير، فقد مزجت المعرفة قديما بضرب من علم الغيب، وأما حديثا فيحاول هذا الضرب من السيمياء أن يؤسس لنفسه مجالا علميا قائما على ما توصلت له مختلف العلوم الإنسانية والطبيعية، ليضع لنفسه القواعد الضابطة والمنهج المساعد.

وقد أدرك القدماء والمحدثون أهمية هذا المجال من السيمياء القائم على دراسة التفاعلات النفسية وانعكاسها في الأعضاء والسلوكات الخارجية للإنسان، ولعل فخر الدين الرازي قد ضبط لنا بعض مجالات عمل علم الفراسة فيها أسماه بفضائلها، حيث يقول:"في بيان هذا العلم ويدل عليه الكتاب والسنة والعقل ، أما الكتاب فقوله تعالى: "إن في ذلك لآيات للمتوسمين" وقوله:"تعرفهم بسيماهم"، وقوله:"ولتعرفنهم في لحن القول"، وقوله:"سيماهم في وجوههم من أثر السجود".

وأما السنة فقوله عليه السلام:"المؤمن ينظر بنور الله"، قال عليه السلام"إن يكن في هذه الأمة محدث فهو عمر".

وأما العقل فمن وجوه:

الأول: أن الإنسان مدني بالطبع ولا ينفك عن مخالطة الناس والشرفاش في الخلق فإذا كانت هذه الصناعة تفيدنا معرفة أخلاق الناس في الخير والشر كانت المنفعة جليلة.

الثاني: أن راضة البهائم يستدلون بالصفات المحسوسة للخيل والبغال والحمير وسائل الحيوانات التي يريدون رياضتها على أخلاقها الحسنة والقبيحة فإذا كان هذا المعنى ظاهر الحصول في حق البهائم والسباع والطيور فلأن يكون معتبرا في حق الناس كان أولي.

الثالث: أن أصول هذا العلم مستندة إلى العلم الطبيعي وتفاريعه مقررة بالتجارب وكان مثل الطب سواء بسواء فكل طعن يذكر في هذا العلم فهو يعينه متوجه في الطب"(2)

إن هذا النص يؤسس للفراسة تأسيسا شرعيا وعقليا، فيجعل لها أصلا في الكتاب والسنة، وهذا الأصل الشرعي يقوم على عنصرين أساسين هما:

أ- إن العلامات أو السمات مفتاح للدخول إلى عمق الذات الإنسانية، ونجد الراغب الإصفهاني في كتابه "معجم مفردات ألفاظ القرآن" يربط بين التوسيم والزكانة

والفراسة والفطنة فالوسم هو التأثير في الشيء أو الإنسان بوضع علامة تميزه وتفصله عن غيره، كما أن التوسم هو أخذ العبرة والمعرفة والاتعاظ، ولا يكون ذلك إلا في أناس منحوا القدرة على الكشف والاستدلال بالعلامات الظاهرة عن الحقائق الباطنية.(3)

ب-ومن هنا يأتي العنصر الثاني الذي هو مصدر هذه الفراسة، وهو يحسب قول رسول الله-صلى الله عليه وسلم- نور الله الذي يلقيه في قلب المؤمن فينظر به إلى عالم الغيب.

أما الركن العقلي فيحيلنا إلى الواقع الذي يعيش الإنسان ضمنه، ويتفاعل معه وهذا الواقع إنما يقوم على عناصر أساسية يمكن ضبطها في النقاط الآتية:

أ-الاتصال: وهو الركن الأساسي لقيام الحياة المدنية للإنسان، ذلك أن الاجتماع البشري يحتاج إلى وسيلة يتم من خلالها، وهذه الوسيلة هي الاتصال بطرقه المختلفة اللسانية وغير اللسانية، المقصودة وغير المقصودة، وإذا كان الإنسان يستطيع أن يتحكم في قناة اللغة، ويتصرف بها كيفما شاء، مظهرا من خلالها ما يجب، ومخفيا ما لا يرد إطلاع أحد عليه، فإن العلامات غير اللسانية، ومنها سمات الجسد، وعلاماته لا يمكنه أن يتحكم فيها تحكما كاملا ومتصلا، فهي كثيرا تكشف حقيقة الإنسان المستترة، وتفضح ما يخفي من الأخلاق الذميمة.

ب-ثم إن الإنسان حتى تتم له عناصر الحياة كلها بحاجة إلى مهارات عديدة تمكنه من معرفة الأشياء التي يتعامل معها وبها، حتى يستطيع السيطرة عليها، وتصريفها إلى الوجهة التي يبتغيها، ويصدق هذا أكثر ما يصدق على عالم الحيوان، ذلك أن لكل طبيعته وأخلاقه، ومعرفة هذه الطباع الكامنة والأخلاق المستترة أمر أساسي، يقوم عليه أهل الخبرة والمعرفة بطبائع الحيوانات.

ج-كما أن الإنسان في حياته اليومية الخاصة به كإنسان يعتمد على الفراسة، ولعل أبرز مجال يحتاجها فيه هو الطب، الذي هو استقراء للعلامات الطارئة على الجسم، والكشف من خلالها عن حال المريض، ومكان الداء ونوعه، ومن ثمة العمل على دفع المرض بما يستحضر من الأدوية، وما يوصف من الحمية وأنواع الطعام والرياضة والاستجمام، فإذا كان الطب يعتمد العلامات الطارئة على الجسد ليكشف المرض، فإن غيرها من

العلامات يعتمد للكشف عن أسرار النفس ومعدن الأخلاق.

إن هذا العنصر الأخير يحيلنا إلى سؤال كبير هو: كيف نقرأ العلامات؟ ونتفرس في السمات؟ لنصل إلى ما تخفيه من حقائق، وما تكشف عنه من معارف؟ ويمكننا ضبط منهجية القراءة في مجموعة من القواعد هي:

أ- القاعدة الأولى: كشف الحجاب، يقول الجاحظ،في نص منسوب له:"ولقد وضع الله على كل عضو من أعضاء الجسم الحيواني أو الإنساني علامة، ثم أخفى هذا العضو وهذه العلامة بغطاء من بحيث تبقى العلامة مختفية الممتد والمحفوظ وإذا ظهرت إحدى هذه العلامات عزم من ذلك ظهور المرض، أو تخارج نقص ما، أو موت عاجل، أو انحراف كامن"(4)

إن هذا النص يشير إلى أن الإنسان يعيش ضمن نسق واسع وشامل من الحجب التي تمنع عنه الوصول إلى المعرفة الحقيقية، بل قد تعطيه هذه الحجب الشعور بالحصول على المعرفة، لكنها معرفة مزيفة لا يمكن بناء أي صرح عليها، إذ هي سراب لا يروي عطشا، إن السبيل لرفع هذا الحجب هو تعويض الأشياء والإنسان للفتنة التي هي امتحان تعقبه محن أو منح، ومن هنا فإن المواقف اليومية العادية لا تسعف في الكشف عن الحقائق المستترة، ذلك أن النفس البشرية في حال الاستقرار تكون أقرب إلى لتحكم في انفعالاتهم، والظهور بالنظر المقبول، لكن ما إن تحدث لها دوافع وعلامات جديدة، ونجد ذاتها في سياقات استثنائية، تفقد توازنها، ومن هنا تفقد القدرة على السيطرة والتمثيل، فتحرر الطاقة الخفية، وتنكشف الأسرار وتظهر إلى العلن الحقيقة التي كثيرا ما تصدم مكتشفها، فتتغير النظرة، وينهار اليقين وقد تتطور المواقف حد الموت.

ب- أما القاعدة الثانية: التي تأتي بعد الكشف عن الحجب فهي: أن العلاقة بين الشكل والمضمون علاقة أولية متجذرة في أعماق العقل البشري، تتجاوز المنطق المكتسب إلى العلاقات الداخلية الفطرية عند الإنسان، والتي تمثل في محصلتها القوانين العامة التي تتحكم في العلاقات الإنسانية من جهة ، ومن جهة أخرى تعد القاعدة الأساسية التي يقوم عليها الفهم الإنساني للذات وللمحيط.

ج-والقاعدة الثالثة: ترتبط بمقولة "التعبير يسبق الأشياء، وهو ما ذهب إليه

بول جيوم،وهذا يجعلنا نؤكد على أن الإنسان في إدراكه للعالم من حوله إنما يدرك دائما المعنى، وأن الأشياء والأفعال لا تشكل إلا خلفية لهذا الإدراك، فلا يمكن الإنسان مهما حاول إدراك الأشياء والأفعال كما هي، هناك بعيدا عن الفهم فالفهم يمتزج بالأشياء الداخلة في مجاله، ومن ثمة فنحن دائما نسقط عالمنا المعرفي الخاص على العالم من حولنا، ولا نرى هذا العالم إلا من خلال منظارنا الخاص، وتتم هذه العملية وفق تدرج. يقول بول جيوم:"نحن ندرك التعبيرات قبل أن ندرك الأشياء، أو بالأحرى أن الأشياء موجودات ذات تعبير قبل أن تكون موجودات محددة بكيفياتها الحسية الخاصة وحسب فلنتأمل إدراكنا لصوت أو وجه إنسان، إنه دائما بالنسبة إلينا جميعا غير مميز تقريبا من هذا الإدراك البداني، فنحن ندرك، في المقام الأول، من الوجه الإنساني التعبير الإجمالي، ونحن ندرك ككل، كلوحة طبيعية، ووحدة الكل هذه إنما هي وحدة تعبير، والتعبير هو الذي يتوارى حين نفصل الأجزاء بعضها عن بعض، وذلك حين نقنع مثلا لوحة فنية لكي نتأمل كل جزء على حده التعبير هو الذي يتغير، بل إنه غالبا ما يتغير تغيرا عميقا، وذلك من خلال تزييف جزئي وضئيل لاحدى السمات التي تهيمن على هيئة الكل، إن التعبير هو الذي يبقى في الذاكرة ويسمح لنا بتذكر الأشخاص، وهو أيضا يوحي بتماثل الأشخاص تماثلا قد يكون شفافا ونفاذا إن التعبير شكل من نمط بدائي للغاية"(5)

د-والقاعدة الأخيرة أن الفراسة حين تتم إنما تتم من أجل غاية تتجاوز حدود المعرفة الخام المقصودة لذاته، بل إن العمل يكون من أجل تحويل هذه المعرفة إلى مجموعة من السلوكات الخاصة والعامة، ولعل أفضل ما يمثل هذه القاعدة هو الكتاب المنسوب لأرسطو بعنوان "سر الأسرار السياسة والفراسة في تدبير الرئاسة"، حيث نجد هذا العنوان ومعه الكتاب بكامله يدور حول ثلاثة عناصر هي:

السياسة = فن التحكم.

الفراسة = فن المعرفة.

التدبير = هو التحكم المبني على المعرفة.

وهذا العنصر الأخير هو التركيب المزجي الذي تتقاطع فيه المعرفة مع الفعل لينتج عنهما الموقف الصحيح.

ومن الأمثلة الواضحة في هذا الكتاب نجد الإسكندر المقدوني يراسل معلمه في أمر الفرس بعد فتح بلاد فارس:

"1-أيها المعلم الفاضل والوزير العادل، أعلمك أني وجدت بأرض فارس قوما لهم عقول راجحة وأفهما ثاقبة وقد يتوقع خطرهم على المملكة وقد عزمنا على قتل رجالهم فما رأيك بذلك"

2-فأجابه أرسط –ماليس: إن كنت منصرفا على قتل جميعهم قادرا على ملكك إياهم فلست بقادر على تغيير هوائهم ومائهم وبلادهم فاملكهم بالإحسان إليهم والتطول عليهم لتظفر منهم والسلام.

3-فبلغ الاسكندر كلامه، فامتثل فكانت الفرس أطوع أمه دانت له"(06)

فالموقف الأول يمثل الاسكندر المقدوني، ويقوم على معادلة بسيطة هي:

السياسة = التدابير.

ذلك أنه رأى أن حس التدبير يقوم على سياسة قتل الأذكياء من رجال فارس، الذين يشكل بقائهم خطرا على سلطته، واستمرار ملكه، وأنه متى تم له الأمر كان ذلك علامة على انتصاره النهائي والدائم على بلاد فارس، مع ذلك فإنه لم ينفذ هذه السياسة قبل الرجوع إلى معلمه ومستشاره أرسطو، وهذا في حد ذاته دليل على أن الاسكندر لم يكن ضيق الأفق، مستبدا بالرأي مما يجعلنا نقف أمام الموقف الثاني.

وهذا الموقف هو موقف أرسطو، وهو قائم على معادلة أكثر تعقيدا هي:

السياسة + الفراسة = التدبير

فحسن التدبير في مجال الرئاسة لا يقوم على حسن العمل، وامتلاك القرار وإنقاذه، بل يقوم إلى جانب ذلك على المعرفة الصحيحة والشاملة بالأمر الذي يريد الرئيس أو الملك اتخاذ القرار فيه، لأن هذه المعرفة تجعله ينظر في الأمر من جوانبه كلها، ولا يكتفي بمجرد التصفح السطحي للأمر، لأن هذا التصفح السطحي كثيرا ما يخدع صاحبه، ويجعله يحصل ضربا من المعرفة الكاذبة التي يكون الاعتماد عليها سببا في بطلان الرأي، وذهاب الأمر، والدخول في متاهات الضلال المهلك لصاحبه، والمفسد لموقفه، والهادم لسلطانه، ولذا نجد أرسطو بما يحمل من علم، وما يملك من خبرة قد رأى أن الأمر لا

يقتصر على أفراد بعينهم لهم الذكاء الحاد والفطنة القوية، بل إن هذه الصفات ليست الإعلامة دالة على ما خلفها ، ومرشدة إلى حقيقة هي: أن المحيط الفارسي كله هو السر وراء هذا الذكاء ، ومن ثمة فقتل الأذكياء من الرجال لا ينهي الأمر، وتغيير المحيط أمر غير ممكن على الإطلاق، فالتدبير الصحيح هنا هو أن يتقرب من هؤلاء الرجال، ويصطنعهم ليملك زمام أمرهم ويضمن ولائهم.

وقد نتج عن هذا التدبير الجديد واقع مناسب لما كان الاسكندر المقدوني يقصد إليه، وهو أن تصبح بلاد فارس طوع يمينه، وجزء من سلطانه الواسع، وهذا يفضي بنا إلى العامة الآتية:

حسن التدبيرة = حسن الفراسة + حسن السياسة

↓ ↓ ↓

الموقف = المعرفة + العمل

هـ- والفراسة لا تقف عند حدود عالم الشهادة الذي أساسه الحواس المستقبلة، والعقل المدرك، والنفس المنفعلة ، بل يتجاوز الفراسة حدود الشهادة لتلامس عالم الغيب، ففي الحديث النبوي "اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله".

وفي هذا المجال يقول يوسف مراد:"وكما أن البصر لا يرى المحسوسات إلا حين تنقشع الظلمات بنور الشمس، وإلا حين تختفي الحواجز التي تفصل بين البصر وموضوعاته، كذلك البصر الجوانب ليس في مقدوره أن يدرك العالم الروحاني إلا إذا تطهرت مرآة القلب من الشهوات التي تمنع انعكاس النور الإلهي، ولكن بينما عضو البصر لا يستطيع ممارسة وظيفته في حالة وجود جدار أو شيء معتم بين العين والموضوع الخارجي أو في حالة الابتعاد المخل أو الاقتراب المخل من العين، نجد أن الأمر مختلف بالنسبة إلى البصر الحوانب ، والعائق الوحيد هو الشهوة والرذيلة، وهو عائق لن يزول إلا بعد جهد جهيد، ولكن ليس يكفي أن يصل القلب إلى أعلى درجات النقاء والإشراق لكي يطلع في سفر مفتوح على المخفيات، بل لن يصل إليه الوحي إلا بإذن من الإرادة الإلهية"(7)

ولا نختم هذه الدراسة إلا بذكر حادثة تاريخية دالة تلخص لنا موقف الفراسة في الحياة اليومية لصاحبها، وتتمثل في حكاية الإمام الشافعي الذي قال:"خرجت إلى اليمن في

طلب كتب الفراسة حتى كتبتها وجمعتها ثم لما كان انصرافي مررت في طريقي برجل وهو مختبئ بفناء داره أزرق العين ناتئ الجبهة، صفاط فقلت له: هل من منزل قال: نعم، قال الشافعي وهذا النعت أخبث ما يكون في الفراسة، فانزلني فرأيت أكرم رجل، بعث إلى بعشاء وطيب وعلف لدوابي وفراش ولحاف. وجعلت أتقلب الليل أجمع ما أصنع لهذه الكتب. فلما أصبحت قلت للغلام أسرج فاسرج فركبت ومررت عليه. وقلت له: إذا قدمت مكة ومررت بذى طوى فاسأل عن منزل محمد بن إدريس الشافعي، فقال لي الرجل: أمولى لأبيك أنا ؟ قلت: لا قال: فهل كانت عندي نعمة؟ قلت : لا، قال: فأين ما تكلفت لك البارحة؟ ، قلت: وما هو؟ قال: اشتريت لك طعاما بدرهمين، وأدما بكذا، وعطر بثلاثة دراهم، وعلفا لدوابك بدرهمين، وكرى الفراش واللحاف درهمان، قلت: يا غلام فهل بقي شيء؟قال:كرى المنزل فإني وسعت عليك وضيقت على نفسي فغبطت نفسي بتلك فقلت له: بعد ذلك هل بقي شيء؟، قال: أمض أخزاك الله فما رأيت شرا منك"(08)

إن هذه الحكاية تقدم لنا عناصر عديدة لعل أهمها هي: لذة اكتشاف الحقيقة حيث يتحقق الإنسان من صدق ما تعلمه هنا تصبح كل الأشياء الأخرى هناك ولا يبقى هنا إلا نعمة العلم والفهم الناتجين عن الفراسة الظاهرية والباطنية.

الهوامش و المراجع

----

1. -الفراسة عند العرب وكتاب "الفراسة" لفخر الدين الرازي: تأليف: د.يوسف مراد، ترجمة وتقديم د.مراد وهبة، مرجعة د.إبراهيم بيومي مدكور، الهيئة المصرية العامة للكتاب-المكتبة العربية، 1982، ص،ص 94- 95.
2. -المرجع السابق، ص 95- 96.
3. - ينظر: معجم مفردات ألفاظ القرآن، العلامة الراغب الأصفهاني تحقق: يوسف الشيخ محمد البقاعي-دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع-لبنان ، ط1، 2006م، ص407.
4. -الفراسة عند العرب: مرجع سابق، ص58، مقدمة المحقق.
5. -المرجع السابق-ص26- مقدمة المحقق.
6. -سر الأسرار السياسة والفراسة في تدبير الرئاسة : لأرسططا ليس تقديم: سامي سلمان الأعور: دار العلوم العربية-بيروت-لبنان، ط1، 1990، ص ص60-61، وترقيم النص من انجازنا.
7. -الفراسة عند العرب، مرجع سابق، ص ص 76- 77 مقدمة المحقق.
8. - نقلا عن المرجع السابق، ص ص72-73.